الكتاب الثالث

المذاهب الفنية فى الأندلس ومصر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الأندلس والمذاهب الفنية

١

الأندلس

تقع الأندلس فى الطرف الجنوبى الغربى من أوربا وهى تؤلف شبه جزيرة كبيرة تفصلها عن بلاد الغال فى الشمال سلسلة جبال البرانس كما يفصلها عن أفريقيا فى الجنوب زقاق ضيق هو مضيق جبل طارق ، بينما يقع فى غربيها هذا المحيط الواسع الذى كان فى العصور القديمة والوسطى يشبه صحراء مائية لانهاية لها ، ونقصد المحيط الأطلسى الذى سماه العرب باسم بحر الظلمات ، أما فى شرقيها فيقع بحر الروم الذى كان صلتها بالمدنيات الفينيقية واليونانية والرومانية ثم العربية . وقد سكن الأندلس — أول الأمر — أقوام من البسك والسلت والجلالقة ، وأتى عليها حين من الدهر ، وهى منعزلة عن الحضارات القديمة ، ولكن سرعان ما أتاها قَبَسٌ من هذه الحضارات عن طريق الفينيقيين واليونانيين الذين استعمروا بعض جهاتها ، ولما نشب الصراع بين روما وقرطاجنة الفينيقية وانتصرت الأولى على الأخيرة استولت على ممتلكاتها ، وضمت الأندلس — فيما ضمت — بين جناحيها — وسمتها إسبانيا اسمها المعروف الآن . ومنذ ذلك الوقت أصبحت إسبانيا ولاية رومانية ، ونشرت روما بها المسيحية كما نشرت بها لغتها اللاتينية ، وكان ذلك سبباً فى أن ساهمت الأندلس — من بعض الوجوه — فى التراث اللاتينى القديم ، غير أن موجات القبائل الجرمانية لم تلبث أن اندفعت إلى الأندلس ، إذ أغار عليها قبائل القندال ، وأسسوا بها دولة أقاموها على نهر الوادى الكبير سموها باسم دولة القندال ، ومن اسم هذه الدولة اشتقت كلمة القندالس التى حورها العرب إلى كلمة أندلس ، وأطلقوها على تلك البلاد

جميعاً ، وأقبلت بعد القندال موجة جديدة جرمانية هى موجة القوط ، وتمّ لها الغلب على الموجة القديمة موجة القندال ، وحكمت البلاد من القرن الخامس الميلادى حتى فتحها موسى بن نصير فى أواخر القرن السابع (عام ٩٢ هـ) .

وكان جيش موسى مؤلفاً من العرب والبربر إلا أن البربر كانوا أكثر نفراً ، ولما سمع العرب والبربر جميعاً بخصب الأندلس وما فيها من كنوز ومعادن أكثروا من الرحلة إليها ، وقد رحلوا ومعهم خصوماتهم التى نعرفها بين القيسية واليمنية ، وأضافوا إليها خصومات أخرى كانت تنشأ دائماً بين العرب والبربر . وليست هذه الخصومات هى كل ما فى الأندلس ، فقد كانت هناك خصومات أخرى دائمة بين الجيوش النازحة من العرب والبربر وبين سكان البلد الأصليين ، ومن المعروف أن العرب تسامحوا فى إسبانيا مع سكانها وكان من نتيجة هذا التسامح أن ظل للمسيحيين هناك نظام خاص فى تقاضيهم ومعاملاتهم ، وبذلك كان لهم بروزهم فى الهيئة الاجتماعية ، بل لقد كانت بعض البلاد — وخاصة الشمالية — مسيحية خالصة ، مما ساعد على قيام الفتن الدائمة بين المسيحيين والمسلمين ، وكان كثير من الشبان المسيحيين يستشهدون فى سبيل دينهم بصور فدائية مختلفة كأن يذهبوا إلى المسجد الجامع فيسبّوا الدين الإسلامى ! وقد عرض « دوزى » فى كتابه (تاريخ مسلمى إسبانيا) لهذه الظاهرة .

وقد كانت الأندلس فى العهد الأموى يحكمها ولاة مختلفون ، حتى إذا قامت الدولة العباسية رأينا عبد الرحمن الداخل يفرّ إليها ويؤسس بها دولة أموية تعتبر امتداداً لدولة الأمويين فى المشرق ، تلك الدولة التى قوضها العباسيون ، وقد سمى أبو جعفر المنصور عبد الرحمن باسم صقر قريش ، وهو جدير بهذه التسمية ، فقد استطاع أن يقيم لنفسه هناك دولة استمرت فى أبنائه وأحفاده من عام ١٣٨ هـ إلى عام ٤٢٢ هـ ، وكان عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) من أزهى عهود هذه الدولة ، وكذلك عهد ابنه الحكم (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) وعهد الوزير المشهور : المنصور بن أبى عامر المتوفى عام ٣٩٢ هـ ولكنا لانترك هذه العهود كلها إلى القرن الخامس حتى تضعف الدولة وتختل ،

فيقوم نظام جديد هو نظام ملوك الطوائف ، وفيه تنقسم الأندلس الكبيرة إلى أندلسيات صغيرة ، ففى كل بلد كبير تظهر دولة مثل دولة المعتمد بن عباد فى إشبيلية وابن الأفطس فى بَطَلْيوس وذى النون بطُلَيْطلة ، وقد أدى ضغط المسيحيين فى الشمال على هذه الأندلسيات أو هذه الدويلات أن تفزع إلى دولة المرابطين فى المغرب فتُلبِّيها وتحتل البلاد للدفاع عن المسلمين هناك ، ثم تدخل الأندلس فى حوزة دولة الموحدين ، ويظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى ثم بنو الأحمر ملوك غرناطة . وتستمر هذه الدولة الصغيرة فى معارك مع المسيحيين حتى تخرَّ جميع الأعلام التى تبقت للعرب فى الدروب الباقية من الأندلس ، ويضطرّ من بقى إلى مغادرة البلاد بعد هذه الحقب المتطاولة التى قضاها العرب هناك حيث أقاموا حضارة عظيمة لا تزال آثارها ماثلة فى مبانى غرناطة وغيرها من المدن الكبيرة .

٢

شخصية الأندلس

تبدو الأندلس من الوجهة الجغرافية وحدة متجانسة ، ولكن من ينعم النظر يجد أن هذه الوحدة تطوى فى داخلها وحدات متباينة ، لكل وحدة مشخصاتها الجغرافية المستقلة : هناك وحدة على ساحل بحر الروم تتأثر بجوه ومناخه ، وأخرى على ساحل المحيط تتأثر بجو ومناخ آخر ، وثالثة تتوسط الوحدتين ، وهى هضبة مرتفعة تتخللها سلاسل من الجبال كما تتخللها طائفة من الأنهار يصبّ بعضها فى المحيط وبعضها فى البحر المتوسط . وهذه الشخصية الجغرافية للأندلس كان لها تأثير واضح فى شخصيتها السياسية ، فإن انقسام البلاد على هذا النحو إلى وحدات متباينة أنتج فيها — مع مرور الزمن — فكرة الاستقلال المحلى ؛ فكل إقليم يُحس أنه مباين للآخر وأنه فى حاجة إلى الاستقلال السياسى على نحو ما هو مستقل استقلالا جغرافيًّا ، وساعد على نمو هذا الشعور فى نفوس

الأندلسيين أنهم كانوا من أجناس مختلفة ، ففيهم بَسْك وسَلْت وجلالقة وقندال وقوط وفينيقيون ورومانيون وعرب وبربر . وهذا الخليط المتباين من شأنه أن لا يمتزج وأن يظل فيل خلل يدعو الناس للثورة والفتن وسفك الدماء ، ويكاد الإنسان يؤمن بأنه لم تَخْلُ بقعة فى الأندلس فى أثناء الحكم العربى من دم مسفوح .

وليس كل ما يميز الحكم العربى فى الأندلس كثرة الفتن والثورات ، فهناك مميزات أخرى طريفة ، لعل من أهمها قوة رجال الدين إذ كانوا يقومون من الأمراء مقام المعارضة ، وكانوا كثيراً ما ينقدون ما يقررونه هم ومجلس وزرائهم من ضرائب فادحة ، وكانوا يستشارون فى شئون الحكم عامة ، فإذا جاء أمير وحاول أن يقلل من نفوذهم ثاروا عليه على نحو ما كان من ثورتهم عام ٢٠٦ على الحكم الأول . ولما ثار رجال الدين حينئذ ثار معهم أهل قرطبة . ومعنى ذلك أن الشعب فى الأندلس كان يحاول أن يدافع عن حقوقه ، وأن يعلن هذه الحقوق فى شكل ثورة إن لم يستجب إليها الحكام استجابة سليمة ، وأوضح ذلك صاحب نفح الطيب إذ يقول : « الأغلب عند الأندلسيين إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها وقيام العامة فى ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يلجّ السلطان فى شىء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبأون بخيله و رَجْله حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير فى أخبارهم ، وأما الرَّجْم بالحجَر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكل يوم »[1].

وبجانب ذلك نجد للأندلس العربية شخصية اجتماعية تميزها — إلى حد ما — عن شخصية المشرق ، ويبدو ذلك فى جانبين ، أما أولهما فكثرة الغناء والجوقات التى أهلّت لظهور الموشحات والأزجال هناك ، وأما ثانيهما فمساهمة المرأة فى الحياة الأدبية مساهمة تجعلنا نذكر سيدات فرنسا من صواحب المنتديات (الصالونات) فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكلنا نعرف أخبار ولادة بنت المستكفى مع ابن زيدون وغيره من أدباء الأندلس . على أن هذا ليس معناه

---

(١) نفح الطيب (طبع بولاق) ١٠٣/١ .

انفصال الأندلس انفصالا تامًّا من المشرق فى حياتها الاجتماعية ، فقد كانت تتصل بها وكانت تأخذ منه كثيراً حتى فى غنائها ، إذ نجد زرياب تلميذ إسحاق الموصلى يبدأ حركة الغناء هناك ، ويقولون إنه نقل إلى الأندلسيين — مع غنائه — كثيراً من آداب المشارقة فى طعامهم وثيابهم وأدوات زينتهم[1] ، وبما لا ريب فيه أن ذلك يوضح صلة ما بين الأندلسيين والمشارقة ، ولكن على كل حال كانت لهم حياتهم الاجتماعية الخاصة .

وإذا كانت الشخصية الاجتماعية للأندلس تتميز من الشخصية الاجتماعية المشرق فإن شخصيتها العلمية على الضد من ذلك ، إذ كان الأندلسيون يعتمدون فى هذا الجانب اعتماداً شديداً على ما يأتيهم من المشرق ، ونحن نعرف أن الكثرة من أهل الأندلس فى القرون الأولى للفتح العربى كانوا نصارى وكانوا يتكلمون اللاتينية العامية فى حياتهم اليومية ويصطنعون اللاتينية الممتازة فى كتاباتهم وخاصة فى الكنيسة وما يتصل بها ، ولكن هذه اللاتينية الممتازة لم يتسرب منها شىء واضح للغة العربية فى الأندلس . على أننا لا نصل إلى القرن الرابع حتى نجد أهل الأندلس يهجرون اللاتينية ، ويتخذون اللغة العربية مكانها حتى فى طقوسهم الدينية[2] . ومهما يكن فإن عرب الأندلس لم يفيدوا شيئًا واضحًا فى حياتهم العلمية عن طريق الأندلس نفسها بل جلّ ما أفادوه أتاهم من المشرق إذ نقلوا الثروة العلمية المشرقية إلى بلادهم بكل ما فيها من فقه ودين ولغة ونحو وفلسفة وطب ، وساعدهم فى ذلك الخلفاء الأمويون وعلى رأسهم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الذى يقال إنه كان يمتلك مكتبة تضم مائة ألف مجلد . ولما سمع المشارقة بتشجيع الدولة الأموية فى الأندلس للعلم أخذوا يفدون هناك زرافات ووُحْداناً ابتغاء المجد والشهرة العلمية ، وكان الأندلسيون أنفسهم يستبقون فى الرحلة إلى المشرق للتزود من ثقافته ومنابعه العقلية. وعقد صاحب

---

(١) انظر ترجمته فى نفح الطيب ٢/٧٤٩ وانظر أيضاً فى ذلك كتاب : R. Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, 1, p. 312.

(٢) Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, p. 415.

نفح الطيب فصولاً طويلة استعرض فيها من رحلوا من الأندلس إلى المشرق ومن المشرق إلى الأندلس . ومن هذه الفصول نتبين الصلة الشديدة بين الجانبين .

ومن يتابع الحركة العلمية فى الأندلس يجد أن الأندلس كانت فى القرون الأولى للفتح الإسلامى بطيئة فى تلقى الحياة العقلية ، وعُنيت فى أول الأمر بالعلوم الدينية واللغوية ، أما العلوم الفلسفية فكانت تنفر منها ، لما فيها من زندقة ، وكان ملوكهم كثيراً ما يأمرون بإحراقها إذا وجدوها . « وبذلك تقرَّب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه »[1] . ولعل ذلك هو سبب بطء ظهور المتفلسفة هناك ، فإن أول فيلسوف أندلسى هو ابن باجة المتوفَّى عام ٥٣٣هـ ، وكان بطء تناولهم الفلسفة وما يتصل بها من منطق أثر فى أن عقولهم لم تصطبغ بالصبغة العلمية التى تؤهلهم لوضع دراسات نظرية كبيرة ، ولعل ذلك نفسه كان أحد الأسباب التى من أجلها لم تظهر عندهم دراسات أدبية جيدة .

وإذا كانت الأندلس لم تتميز فى شخصيتها العامية بصفات واضحة تفصلها من المشرق ، بل كانت تؤسِّس على الأصول المشرقية حركتها العلمية ، فإنها كذلك فى شخصيتها الأدبية كانت تؤصل حركتها الفنية على الأصول المشرقية حتى ليقول صاحب الذخيرة فى مقدمته لهذا الكتاب الذى عُنى فيه بدراسة أدباء الأندلس فى القرن الخامس للهجرة : « إن أهل هذا الأفق أبَوْا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعَق بتلك الآفاق غراب أو طَنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً » . وقد كتب ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وعرض فيها لشياطين الشعراء والكتاب الذين أجازوه ، وكلهم من شعراء المشرق وكتابه[2] ، وكانوا لا يزالون يرددون حتى عصر ابن خلدون فى القرن

---

(١) نفح الطيب ١/١٠٤ .

(٢) انظر الرسالة بأكملها فى الذخيرة (نشر كلية الآداب بجامعة القاهرة) ١/٢١٠ .

الثامن للهجرة أن « أصول علم الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى »[1] . وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما أحست قوافل العرب فى الأندلس أنها افتقدت حياتها وأصولها جميعاً فى أثناء سفرها من المشرق فرجعت تستعيد هذه الحياة من شعره ونثره ، وساعد على ذلك كثرة الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق وبالعكس ، كما ساعد عليه رحلتهم السنوية إلى مكة والمدينة للحج . وكل ذلك جعل الأندلس تندمج فى الكتلة العربية إذ كانت طوابع الحياة الأدبية فيها — من الوجهة العامة — هى نفس طوابع المشرق ، وإن ظهر اختلاف فى الفروع لا فى الأصول ، فإن الأصول كانت أقوى وأعمق من أن تتأثر بالفوارق الإقليمية .

٣

النثر الأندلسى

رأينا الأندلس تندفع نحو تقليد المشرق فى علمه وأدبه ، وكان هذا الاندفاع طابع الأقاليم العربية عامة ، فهى جميعاً تتجه نحو الأم ، نحو بغداد ، تتغذى منها ، وتستمد صفاتها وخصائصها ، ومهما غرَّبْتَ وأبعدت عن بغداد فالخصائص الكبرى للأدب العربى فى كل إقليم من أقاليمه واحدة ، وكأنما اللغة العربية لا تعرف الاعتداد بالمكان ، ولا تعتد به بل قل هى تعرفه ، وتعتد به ، ولكنها لا تقيم وزناً كبيراً لهذه المعرفة ولا لهذا الاعتداد ، بل إنها لتقسو على الأقاليم التى تدخلها ، فإذا أبناؤها لا يتصلون بها إلا اتصالا بعيداً ، أما اتصالهم القريب فإنما هو بالنماذج الأدبية الممتازة التى اصطنعتها العربية لنفسها فى بغداد

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ٤٠٨ .

والمشرق . ومن أجل ذلك كنا لا نجد فروقاً جوهرية بين نماذجها فى العراق وفى بلد كالشام ومصر ، وحتى الأندلس لا نحس فيها أننا بُدِّلْنا بجو المشرق العام جوًّا يختلف عنه تمام الاختلاف . ونحن لا ننكر أثر الإقليمية من حيث هو ، فدائماً توجد فى كل إقليم صفات تميز أدبه بعض التميز من أدب الأقاليم الأخرى ، ولكن ينبغى أن لا ننزلق من ذلك إلى القطع بأن الأقاليم العربية أوجدت لأنفسها آداباً متخالفة بتخالفها ، فإن ذلك إنما ينزلق إليه من لم يقرأ شيئاً فى آداب هذه الأقاليم فتراه يعتمد فى حكمه على الحَدْس والتخمين كأننا بإزاء مسألة ميتافيزيقية ، أما الذين يكفُّون عقولهم عن مثل هذه الفروض لاجئين إلى الحقائق الحسية الصحيحة يستمدون منها أحكامهم وآراءهم فإنهم يعرفون أن جملة النماذج التى كوَّنها الأدب العربى فى أى إقليم من أقاليمه لا تختلف اختلافات واسعة عن النماذج الأساسية لهذا الأدب التى كونها فى المشرق .

على أنه ينبغى أن نلاحظ ظاهرتين مهمتين تتصلان بالنثر الأندلسى ، أما الظاهرة الأولى فهى أن هذا النثر لا يظهر فيه كاتب كبير قبل القرن الرابع للهجرة ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن الشخصية الأدبية للأندلس لم تتكامل إلا فى هذا القرن . وكان الناس قبل ذلك يكتبون نثراً ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يرتفع بنثره إلى درجة تجعله يقف فى صفوف كتاب العصر العباسى الممتازين . والحق أن الأندلس تبدأ نهضتها الأدبية منذ القرن الرابع وعهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ، ذلك العهد الذى أُلف فيه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وأُملى فيه كتاب الأمالى ، أملاه أبو على القالى فى قرطبة . ومنذ ذلك العهد المزدهر أخذت الأندلس تشعر بشخصيتها وتحاول أن تصور هذه الشخصية فى آثارها ونماذجها الأدبية ، وهذه هى الظاهرة الأولى . أما الظاهرة الثانية فهى أن الأندلسيين لم يستحدثوا لأنفسهم مذهباً جديداً فى تاريخ النثر العربى يمكن أن نضيفه إلى المذاهب الثلاثة السابقة التى كوَّنها هذا النثر فى المشرق ، فقد وقفوا عند المحاكاة ، وهى محاكاة اضطرتهم إلى ضروب من الخلط ، إذ ترى الكاتب الواحد يجمع فى نماذجه بين المذاهب الثلاثة التى رأيناها فى المشرق ،

فتارة يصنع لنفسه نموذجاً من ذوق أصحاب الصنعة ، وتارة يعدل عن ذلك إلى ذوق أصحاب التصنيع ، وتارة ثالثة تراه يعدل إلى ذوق أصحاب التصنع . وقد فُتنت كثرتهم بالسجع ، ولكنها لم تفتن بالبديع الذى كان يصحبه عند أصحاب التصنيع ، بل فتنت — إلى حد ما — بالغريب الذى رأيناه عند أصحاب التصنع ، كما فُتنوا بالأمثال ، وربما كان لكتاب الأمالى للقالى أثر مهم فى ذلك ، فقد بناه صاحبه على هذين الجانبين . ونحن نقف عند أهم كاتب ظهر فى العصر الأموى لنرى ما وصل إليه النثر الأندلسى فى هذا العصر من رقى وازدهار ، وهو ابن شهيد الكاتب المشهور .

ابن شهيد

هو أحمد بن عبد الملك . . . بن شُهَيْد الأشجعى القوطى ، ولد بقرطبة عام ٣٨٢ هـ وتوفى عام ٤٢٦هـ[١] وهو من بيت أدب ومجد ، كان جده وزير عبد الرحمن الناصر[٢] وأديباً من أكبر الأدباء فى عصره ، وورث عنه حفيده أدبه كما ورث عنه صلته الحسنة بالأمويين وإن لم يستوزروه لثقل كان فى سمعه . ويظهر أنه ورث عن آبائه مالا كثيراً بعثره فى اللهو والخلاعة حتى ليقول أبو حيان : « إن البطالة غلبتْ عليه فلم يحفل فى آثارها بضياع دين ولا مروءة »[٣] . وهذا الشخص المترف الذى ساق حياته فى اللهو والخلاعة كان مثقفاً ثقافة واسعة بمعارف عصره ، فقد ذكر فى إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وصنعة وحكمة[٤] ، ويقول ياقوت : « كان له من علم الطب نصيب وافر »[٥] . على أن الجانب الذى تميز به إنما هو جانب الأدب فقد كان شاعراً كبيراً كما كان كاتباً كبيراً أيضاً ، ويدل ما رُوى عنه من آثار أن نثره كان أكبر من شعره ، وقد شهد له النقاد

---

(١) انظر ترجمته فى المغرب (طبع دار المعارف) وما بهامشها من مراجع ١/٧٨

(٢) نفح الطيب ١/١٧٩ .

(٣) الذخيرة ١/١٦١ .

(٤) الذخيرة ١/١٨٦ .

(٥) معجم الأدباء ٣/٢٢٣ .

بمقدرته فيه وتفوقه . كتب عنه الثعالبي فقال : «إن نثره فى غاية الملاحة»[١] وقال أبو حيان : «كان أبو عامر بن شهيد يبلغ المعنى ولا يطيل سَفَر الكلام ، وإذا تأملته ولَسَسْته ، وكيف يجرّ فى البلاغة رَسنه ، قلت : عبد الحميد فى أوانه ، والجاحظ فى زمانه . . . وكان فى تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك . . . وله رسائل كثيرة فى أنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برزّ فيها شأوه ، وبقّاها فى الناس خالدة بعده»[٢] . وقدم له صاحب الذخيرة بقوله : «كان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها ، وينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستها وأُساتها ، ومعنى أسمائها ومسمياتها ، نادرة الفلك الدوّار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هزل فسجعُ الحمام ، أو جدّ فزئير الأسد الضرغام . نظمٌ كما اتسق الدرّ على النحور ، ونثر كما خُلط المسك بالكافور ، إلى نوادر كأطراف القنا الأمْلود ، تشقّ القلوب قبل الجلود ، وجواب يجرى مجرى النفس ، ويسبق رجع الطرف المختلَس»[٣] ومن قول صاحب المطمح فيه : «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها ، حائز قصب السبق فيها ، لا يشبهه أحد من أهل زمانه ، ولا ينسقّ ما نسقّ من دُرّ البيان وجُمانه ، توغل فى شعاب البلاغة وطرقها ، وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها ، لا يقاومه عمرو بن بحر ، ولا تراه يغترف إلا من بحر»[٤] .

ونرى من هذه النصوص المختلفة أن النقاد كانوا يكبرون من شأن ابن شهيد ومنزلته الأدبية ، وقد قرنوه إلى الجاحظ لهزل كان فيه وميل إلى الفكاهة ، وأكبر الظن أنه يتأثر فى هذا الجانب بديع الزمان فقد ذكره فى رسائله[٥] ، وكتب رسالة فى الحلواء ذهب فيها مذهبه فى المقامة المَضيرية ، وحكى فى التوابع والزوابع ما وصف به بديع الزمان الماء ثم أتى بأوصاف أخرى للماء يريد بها أن يثبت براعته[٦]

---

(١) اليتيمة ٢/٤٣ .
(٢) الذخيرة ١/١٦٠ .
(٣) الذخيرة ١/١٦٠ .
(٤) مطمح الأنفس لابن خاقان (طبع مطبعة الجوائب) ص ١٦ .
(٥) الذخيرة ١/٢٠٣ .
(٦) الذخيرة ١/٢٤٦ .

وأهم أثر تركه ابن شهيد هو رسالة التوابع والزوابع ، والتابع الجن والزوبعة الشيطان ، وسماها بهذا الاسم لأنه بناها على شيطان تراءى له فى وقت أُرْتج عليه فيه وهو ينظم شعراً فأجازه . ولما تعارفا طلب إليه ابن شهيد أن يلقى به شياطين الشعراء والكتاب الذين غبروا ، فأجاب طلبته ، وحمله على جناحه إلى وادى الجن حيث التقى بكثير من شياطين الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ، كما التقى بطائفة من شياطين كتّاب المشرق . وتدور القصة فى الرسالة على أنه يلقى التابعَ للشاعر المشهور فينشده شعراً لصاحبه ، ثم ينشده ابن شهيد بعض شعره ، فيعجب به ويجيزه آية على قدرته البلاغية . وكذلك يلقى توابع الكتاب أمثال عبد الحميد والجاحظ وبديع الزمان فيعرض عليهم رسالته فى وصف البرد والنار والحطب كما يعرض عليهم رسالته فى الحلواء ، وأيضاً فإنه يعرض عليهم صفته لثعلب ولبرغوث ، ويستحسنون ما يعرض ويجيزونه . ووقف تابع الجاحظ عند سجعه ، وقال له إن كلامك نظم لا نثر فزعم أن تلك صفة أهل بلده وأنهم يعجبون بالسجع وطابعه ، وهكذا تنفضُّ جموع الجن وهى تشهد بأنه شاعر بديع وكاتب بليغ .

والرسالة تفيض بروح الفكاهة كأن نراه يعرض لبركة ماء بإحدى جوانب وادى الجن ، ومن حواليها طائفة من حمر الجن وبغالها وتتقدم له بغلة شهباء عليها جُلُّها وبرقعها فتنشده بعض الشعر وأخيراً تقول له : « أما تعرفنى أبا عامر؟ قلت : لو كانتْ ثم علامة ، فأماطتْ لثامها فإذا هى بغلة أبى عيسى ، والخال على خدّها ، فتباكينا طويلا وأخذنا فى ذكر أيامنا » . وما من شك فى أن هذا الجانب فى التوابع والزوابع يكسبها خفة ورشاقة ، ومن يرجع إليها يجد ابن شُهَيْد لا يستخدم فيها دائماً أسلوب السجع بل تارة يسجع وتارة لا يسجع وهذا هو معنى قولنا إن الكاتب الكبير فى الأندلس لم يكن يخضع فى صنع نماذجه لمذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هو — على نحو ما نرى الآن عند ابن شهيد — كان يتقلب بين المذاهب والمناهج المختلفة . ومع ذلك فلا تظن أن ابن شهيد حين يستخدم السجع كان يستخدم البديع الذى هو الشق الثانى لمذهب التصنيع ،

فإنه لم يكن يتصور هذا المذهب بكافة تفاصيله كما تركه أصحابه . وليس معنى ذلك أنه لم يقرأ لهم ما يفهم به هذا المذهب ، بل لقد قرأ لهم كثيراً ، وخاصة الصابى وبديع الزمان[١] ! وأيضاً ينبغى أن لا تظن أن ابن شهيد لم يخرج فى جوانب من رسائله إلى مذهب التصنع ، بل لقد خرج إلى هذا المذهب فى كثير من جوانبها ؛ إذ نراه يعنى باستخدام الغريب ، واعترف بذلك فى إحدى رسائله[٢] . وكان إلى ذلك يكثر من الأمثال[٣] كما كان يكثر من المبالغات والتهويلات[٤] والاقتباس من القرآن الكريم[٥] ، إلا أنه لم يعن بتعقيدات زخارف البديع جملة ، بل إنه لم يعن بهذه الزخارف نفسها كما تركها أصحاب مذهب التصنيع ، ومع ذلك فقد كان ذوقه أقرب ما يكون إلى ذوقهم ، وتطرق من هذا الذوق إلى العناية بالفكاهة فى آثاره على نحو ما نجد عند بديع الزمان فى مقاماته . وكما أطرف فى رسالة التوابع والزوابع أطرف أيضاً فى رسالة أخرى تسمى حانوت عطار ، ويظهر أنه كان يميل إلى الإغراب فى الموضوع ، ولعل ذلك ما جعله يقف عند وصف ثعلب وبرغوث وبعوضة ، ومهما يكن فقد كان ابن شهيد أكبر أديب فى عصره ، ولكنه لم يستطع المخالفة على مذاهب المشرق ومناهجه ، بل ذهب يقلد هذه المذاهب والمناهج فى غير نظام ولا نسق معين .

٤

ملوك الطوائف ونهضة النثر الأندلسى

إذا تركنا عصر الأمراء الأمويين وانتقلنا إلى عصر ملوك الطوائف وجدنا الأندلس تنهض نهضة واسعة فى أدبها من شعر ونثر ، وكأنما انقسامها إلى وحدات صغيرة أهلها لنشاط أدبى واسع إذ أصبح لكل وحدة صغيرة ، أو بعبارة

---

(١) الذخيرة ١/٢٠٣ وكذلك ١/٢٠٧ .
(٢) الذخيرة ١/٢٠٠ .
(٣) الذخيرة ١/١٩٣ وما بعدها .
(٤) الذخيرة ١/١٧١ .
(٥) الذخيرة ١/١٩١ وكذلك ١/٢١١ .

أخرى ، لكل مدينة ، حاكم مستقل ، وسعى كل حاكم — بسبب ما بينه وبين الحكام الآخرين من تنافس — إلى تشجيع الحركة العلمية والأدبية فى وطنه ومقر حكمه وملكه ، وبذلك أضفى انقسام الأندلس إلى دويلات على العلم والأدب تقدماً ورقيًّا عظيماً . وإن الأندلس فى ذلك لتشبه إيران فى القرن الرابع الهجرى حين توزَّعتها دول وإمارات مختلفة ، فقد لاحظنا فى غير هذا الموضع أن هذا التوزع وما صحبه من قيام مدن ومراكز كثيرة أهَّل لنهضة أدبية رائعة ، وكذلك الشأن فى الأندلس فى أثناء القرن الخامس للهجرة ، فإن انقسامها إلى أندلسيات متعددة جعل مراكز النشاط الأدبى فيها تتعدد أيضاً ، وكان كل حاكم أو أمير يُعْنى بأن يكون فى بلاطه أهم كاتب فى إقليمه ، ومن ثم أصبحت كل مدينة تشتهر بكاتب مهم إن لم يكن بطائفة من الكتاب ، وتعقَّب صاحب الذخيرة هذه الظاهرة فعرض لكتاب كل مدينة عرضاً مفصلا ؛ ومن يرجع إليه فى كتابه المذكور يلاحظ أن الكتاب كلهم غمرهم ذوق السجع ؛ فهم جميعاً يسجعون . وكان الكتَّاب فى العصر الأموى يتخففون من السجع أحياناً كما رأينا عند ابن شهيد ، أما فى هذا العصر فإنهم يلتزمونه التزاماً ، بل قد يجد الإنسان فى عصر الأمويين كاتباً لا يسجع مطلقاً وإنما يزاوج مثل ابن بُرْد الأكبر ، أما فى هذا العصر فإن الكتاب جميعاً يسجعون ، ومن أبرعهم فى ذلك ابن برد الأصغر حفيد ابن برد الأكبر ، وقد روى له صاحب الذخيرة مجموعة كبيرة من رسائله كما روى له مناظره بين السيف والقلم ، ومن يقرأ المناظرة والرسائل لا يحس جديداً فقد جمدت الأندلس عند صياغة المشارقة ، ولم تستطع أن تضيف إليها من جديد ، وهل يستطيع الإنسان أن يجد فى الذخيرة لهذا العهد اتجاهاً جديداً أو لوناً جديداً ؟ إنه ليس هناك إلا التقليد والمحاكاة وأن يحتذى الكاتب على نموذج مشرقى ، فإذا هو يصنع رسائل كرسائل المشارقة أو يصنع مقامة كمقاماتهم على نحو مقامة أبى حفص عمر بن الشهيد التى رواها صاحب الذخيرة . ونحن نلاحظ عند هؤلاء الكتاب عامة أنهم لم يعنوا بالبديع لكنهم استمروا — كما رأينا عند ابن شهيد — يعنون بالغريب وبالأمثال والاقتباس

من القرآن ، كما عنوا كثيراً بحلّ الشعر وتضمينه ، وليس معنى ذلك أنهم عقّدوا نثرهم على نحو ما رأينا عند أبي العلاء وأصحابه فإن حياتهم التي كانت تقوم على الفتن من جهة وعلى الحروب مع المسيحيين من جهة أخرى لم تُتح لهم الفرصة للتأني والتمهل ، فلم يُطْبَعْ أدبهم بطابع التعقيد ، وإن كان ذلك يظهر فيه من حين إلى حين ، ونحن نقف عند أهم كاتب ظهر فى هذا العهد ، وهو ابن زيدون ، لنطلع على الصورة الفنية للكتابة حينئذ .

ابن زيدون

هو أحمد بن عبد الله . . بن زيدون المخزومي القرطبي [١] ، ولد بقرطبة عام ٣٩٤ للهجرة وتوفى بإشبيلية عام ٤٦٣ [٢] ، وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة [٣] ، ولما قامت الفتن فى أواخر حكم الأمويين أسهم فيها إذ كان هواه مع الثائرين ، ومن أجل ذلك قربه أبو الحزم جهور أمير قرطبة إلا أن هذه المكانة لم تدم له طويلا إذ نسبت إليه مؤامرة على السلطان وتصادف أن كان هناك أديبة شاعرة يتعلق بها ابن زيدون وهي ولادة بنت المستكفي ، ولهما مطارحات ومجالس محفوظة [٤] ، وكان ينافسه فيها ابن عبدوس فاصطدم كل منهما بالآخر ، وكان ابن زيدون كاتباً فكتب رسالة هزلية طويلة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس يزعم فيها أنه أرسل لها سيدة تمدحه لها ، وتحاول أن تعقد الصلة بينه وبينها ، فنهرتها نهراً شديداً ، ولم تكتف بذلك ، بل كتبت له هذه الرسالة وكلها تهكم به وسخرية . ولم يرد ابن عبدوس على خصمه برسالة أخرى بل دبّر له مؤامرة واسعة النطاق جعلت أبا الحزم بن جهور يحبسه ، وقد كتب إليه ابن زيدون من السجن برسالة طويلة تسمى الرسالة الجدّية يستعطفه بها ، وكذلك استعطفه برسائل وقصائد أخرى إلا أنه لم يرقّ له ، وأخيراً يعفو عنه مستجيباً فيه لشفاعة ابنه أبي الوليد ولما ولي بعده سنة ٤٣٥ اتخذه سفيراً بينه وبين رؤساء الأندلس

---

(١) انظر فى ابن زيدون كتابنا عنه فى سلسلة نوابغ الفكر العربي (طبع دار المعارف) .

(٢) وفيات الأعيان ١/٤٤ .

(٣) الذخيرة ١/٢٩٠ ووفيات الأعيان ١/٤٣ .

(٤) الذخيرة ١/٣٧٦ .

غير أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينهما ففر ابن زيدون على وجهه إلى إشبيلية عام ٤٤١[١] ، فلقيه أميرها المعتضد لقاء حسناً ، واصطنعه لنفسه كما اصطنعه ابنه المعتمد من بعده ، واستطاع المعتمد بفضل مشورته أن يستولى على قرطبة ، وما زال يرعاه خير رعاية حتى إذا كان عام ٤٦٣ أرسله إلى إشبيلية فى مهمة إلا أن القدر عاجله ، ويقولون : إن أهل قرطبة حزنوا لوفاته حزناً شديداً .

وهذا كله يرينا أن حياة ابن زيدون كانت مليئة بمتاعب ومصاعب جمة ، ومع ذلك فهو يوضع على رأس شعراء وكتّاب عصر ملوك الطوائف ، يقول صاحب الذخيرة فيه : « كان أبو الوليد بن زيدون غايةَ منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بنى مخزوم ، أحد من جرَّ الأيام جرًّا ، وفات الأنام طرًّا ، وصرَّف السلطان نفعاً وضرًّا ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزُّهْر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المبانى شعرىّ الألفاظ والمعانى »[٢] ، ويقول أيضاً : « فأما سعة ذَرْعه وتدفق طبعه ، وغزارة بيانه ، ورقة حاشية لسانه ، فالصبحُ الذى لا ينكر ولا يرد ، والرمل الذى لا يحصر ولا يُعَد »[٣] ، ولعل أطرف ما ترك ابن زيدون من آثاره الكتابية هو الرسالة الجِدّية ثم الرسالة الهزلية ؛ أما الرسالة الجدية التى كتبها فى الاستعطاف فهى تبدأ على هذا النمط :

« يا مولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، أبقاك الله ماضىَ حَدِّ العزم وارىَ زَنْد الأمل ، ثابتَ عهد النعمة ، إن سلبتنى — أعزك الله — لباسَ نعمائك ، وعطَّلتنى من حَلْى إيناسك وأظمأتنى إلى بَرود إسعافك ، ونَفَضْتَ بى كَفَّ حياطتك ، وغضضْت عنى طَرْف حمايتك ، بعد أن نظرَ الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصمُّ ثنائى عليك[٤]

---

(١) الذخيرة ١/٢٩١ ووفيات الأعيان ١/٤٣ .

(٢) الذخيرة ١/٢٨٩ .

(٣) الذخيرة ١/٢٩٢ .

(٤) يشير إلى قول المتنبى :

أذا الذى نظر الأعمى إلى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم

وأحسّ الجماد باستحمادى إليك ، فلا غرو قد يَغَصّ بالماء شاربه، ويقتل الدواءُ المستشفَى به ، ويؤْتى الحذَرُ من مأمنه(١) ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحَيْنُ قد يسبق جهد الحريص (٢) :

كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى　　　وتهون غيرَ شماتة الحسّادِ

وإنى لأتجلد وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع (٣) ، فأقول : هل أنا إلا يد أدْماها سوارها،(٤) وجبينٌ عضّه إكليله ومشرفىّ ألصقه بالأرض صاقله ، وسمهرىٌّ عرضه على النار مثقّفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول (٥) :

فقسَا ليَزْدَجِرُوا ومن يكُ حازمًا　　　فليَقْسُ أحيانًا على من يَرْحَمُ

هذا العَتْبُ محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوَةُ غمرة ثم تنجلى(٦) ، وهذه النكبة سحابةُ صيف عن قليل تقشّع (٧) ، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سَيْبُه ، أو تأخر ــ غير ضَنين ــ غَناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فيضاً أملؤها(٨) وأثقل السحائب مشياً أحفلُها ، وأنفع الحيَا(٩) ما صادف جَدْباً ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب » .

وأكبر الظن أن خصائص ابن زيدون اتضحت لنا الآن ، فهو يعنى عناية شديدة بحل الشعر فى كلامه كما يعنى بالأمثال وحشدها حتى لتغدو

---

(١) هذا المثل مقتبس من بيت لعدى بن زيد العبادى .

(٢) مثل قديم . والحين : الموت .

(٣) مأخوذ من قول أبى ذؤيب :

وتجلدى للشامتين أريهم
أنى لريب الدهر لا أتضعضع

(٤) مأخوذ من قول المتنبى :

بنو كعب وما أثرت فيهم
يدٌ لم يدمها إلا السوار

(٥) هو أبو تمام :

(٦) مأخوذ من قول بعضهم :

وما هى إلا غمرة ثم تنجلى
سريعاً وإلا نبوة تتصرم

(٧) مثل قديم . وتقشع : تقلع .

(٨) مثل أيضاً .

(٩) الحيا : المطر . أحفلها : أملؤها .

obeikandi.com

رسالته فى حاجة إلى الشرح ، لأن كثيراً من عباراتها أمثال مرموزة وأبيات منثورة وشطور من الشعر مرصوفة . وهذا نفسه هو الذى يجعلنا نقول إن ذوق ابن زيدون فى نثره كان قريباً من ذوق أصحاب التصنع فى المشرق ، وحقًّا هو لم يستخدم البديع ولا ما يتصل به من تعقيد بعض زخارفه ، ولكنه استخدم لغة مبهمة بعض الشىء . وإذا استمررنا معه فى الرسالة وجدناه يلجأ إلى شىء أكثر صعوبة ، وهو ذكر كثير من وقائع القرآن الكريم وحوادث الإسلام الحنيف . وراعَ هذا الجانب فى الرسالة القدماء لأنهم عثروا به على مادة غنية للشرح والتفسير ، واستمعْ إليه يصور لابن جهور أنه لم يرتكب جرماً كبيراً فيستهدف لما مضى من جنايات وأحداث فى الديانات ، على هذا النحو :

« قد بلغ السيل الزُّبى[1] ، ونالنى ما حسبى به وكفى ، وما أرانى إلا أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لى نوح : اركبْ معنا ، فقلت : (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) وأمرتُ ببناء الصَّرْح لعلى أطلع إلى إله موسى ، وعكفتُ على العجل ، واعتديت فى السَّبْت ، وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذى ابتُلى به جيوش طالوت ، وقُدْتُ الفيل لأبرهة ، وعاهدت قريشاً على ما فى الصحيفة ، وتأولت فى بَيْعة العقبة ، ونفرت إلى العير ببدر ، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد ، وتخلفت عن صلاة العصر فى بنى قُرَيْظة وجئت بالإفك على عائشة الصديقيّة ، وأنفت من إمارة أسامة وزعمت أن بيعة أبى بكر كانت فَلْتة » .

وترك ابن زيدون هنا السجع لأنه لا يستقيم وما يريد أن يروى من هذه الأحداث وهى أحداث لا يفهمها إلا من قرأ سير الأنبياء والسيرة النبوية خاصة ، ولا بد له بعد ذلك أن يقرأ شيئاً عن حياة المسلمين بعد الإسلام . ونحن نراه فى الرسالة ينتقل بعد ذلك إلى تملق ابن جهور مع شىء من الزهو والخيلاء ، وقد

---

(١) مثل يضرب حين يتفاقم الأمر : الزبى : جمع زبية . وهى الحفرة فى المكان المرتفع .

امتد به نفسه طويلا ، فأكثر من الحكم والأمثال ، كما أكثر من تضمين الشعر وحلّه فى نثره ، وكذلك أكثر من اقتباس آى الذكر الحكيم . وما من ريب فى أن هذه صورة أخرى من صور التصنع ، وهى صورة لا تبلغ ما بلغه المذهب فى المشرق من تعقيد عند أبى العلاء وأصحابه ، ولكنها على كل حال تأخذ من التصنع بأطراف قوية . وتذهب هذا المذهب نفسه الرسالةُ الهزلية ، إذ نراه يسخر من ابن عبدوس متطرقاً فى أثناء سخريته إلى ذكر كثير من الأمثال وحوادث التاريخ وأعلامه ، واستطاع فى أثناء ذلك أن ينفذ إلى التأثر بالجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير ، وانظر إليه يقول فى بعض جوانبها عن السيدة التى أرسلها ابن عبدوس : إنها زعمت لولاّدة :

« أن بطليموس سوّى الأصْطُرْلاب بتدبيرك ، وصوّر الكرةَ على تقديرك ، وأبقْراط عَلِمَ العلل والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حَدْسك ، وكلاهما قلدك فى العلاج ، وسألك عن المزاج ، واستوصفك تركيب الأعضاء ، واستشارك فى الدواء والداء ، وأنك نَهَجْتَ لأبى معشر طريق القضاء ، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء ، وأعطيتَ النظّام أصلا أدرك به الحقائق ، وجعلت للكندىّ رسماً استخرجَ به الدقائق ، وأن صناعة الألحان اختراعُك ، وتأليف الأوتار والأنغام توليدُك وابتداعك ، وأن عبد الحميد بن يحيى بارى أقلامك ، وسهل بن هرون مُدوِّن كلامك وعمرو بن بحر مُسْتملیك ، ومالك بن أنس مستفتيك ، وأنك الذى أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحدَّ الماهية ، وبين الكيفية والكمية » .

والحق أنك مهما قرأت فى آثار الأندلسيين فستراهم يرجعون دائماً إلى أصول مشرقية يقلدونها ويستمدون منها ، إما فى تنسيق الموضوع على نحو ما استفاد ابن زيدون من الجاحظ فى رسالته الهزلية ، وإما فى العناصر التى يؤلفون منها نماذجهم على نحو ما رأيناه فى الرسالة الجدية ، إذ ذهب يستعين فيها بشعر لأبى ذؤيب والمتنبى وغيرهما ينثره فى أثنائها وكما ذهب يستعين بأمثال قديمة . وهو يضيف إلى ذلك آيات من القرآن الكريم ألفاظاً يجمّل بها عمله وأيضاً فإنه يتصنع للذكر

كثير من حوادث الديانات وخاصة حوادث الإسلام كما يتصنع لكثير من أعلام التاريخ . وهذا هو الجديد الذى كان يأتى به ابن زيدون لبيان تفوقه وبراعته، وهى أشياء كلها تُرَدُّ إلى المشرق، وليس للأندلس فيها إلا فضل النموذج الذى يجمعها بعضها إلى بعض ، فإذا هى تستوى فى صورة أدبية خاصة ، ومع ذلك فليس من شك فى أن ابن زيدون يوضع فى الطبقة الأولى من كتاب الأندلس وأدبائها على مر العصور !

٥

جمود النثر الأندلسى

يذهب عصر ملوك الطوائف وندخل منذ عام ٤٨٤ للهجرة فى عصر جديد هو عصر سلطان المغاربة ، إذ فزع الأندلسيون فى حروبهم مع المسيحيين إلى يوسف بن تاشفين صاحب دولة المرابطين لينصرهم عليهم، فيذهب إليهم يرد عنهم كيد أعدائهم ، ولكنه لا يتركهم ، بل يُدخلهم فى حَوْزته ، واستمرت الأندلس تابعة لدولته حتى استولت عليها دولة الموحدين ، وقد اشتهرت الدولة الأولى دولة المرابطين بالتعصب فى مسائل الدين وأصبح للفقهاء فى عصرها شأن كبير ، إذ كان لهم أثر واسع فى دخول البلاد فى هذا الحكم الجديد ، وكان المرابطون لذلك يعتدون بهم، فهم عدتهم وعتادهم ، ومن أجل ذلك سلّموا لهم شئون الدولة فاضطهدوا المتفلسفة ورموهم بالزندقة وتعقبوهم فى كل مكان . أما دولة الموحدين فكان حكامها أوسع عقولا وتفكيراً وقد اشتهر من بينهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) بمحبة الفلسفة وأصحابها ، وممن ظهر فى عصر هذه الدولة ابن باجة وابن رشد وابن طفيل ، ونستمر حتى نلتقى فى القرن السابع ببنى هود وكذلك ببنى الأحمر أصحاب غرناطة .

واستطاعت الأندلس أن تتقدم فى الحركة العقلية فى أثناء تلك العصور ،

ولكنها لم تستطيع أن تتقدم فى الحركة الأدبية ، إذ استعلى الفقهاء أول الأمر فى الحكومة وأصبح الحكام يتخذون منهم كتابهم ، فطبعوا النثر بطابعهم العلمى الجامد ، وكانوا يسجعون فى كتابتهم ، ويحلون سجعهم بالتصنع لبعض المصطلحات العلمية التى عرفوها فى دراستهم ، وهم من هذه الوجهة أقرب إلى ذوق أصحاب التصنع فى المشرق من كتّاب عصر ملوك الطوائف ، ولعل مما يتصل بذلك أنهم تصنعوا فى كتابتهم للبديع ، وما يتصل به من طباق وجناس ، وأخذوا يعممون السجع فى الكتابة التاريخية ، وخاصة تلك التى تتصل بالترجمة للأدباء على نحو ما نجد فى (الذخيرة) لابن بسام و (قلائد العقيان) و (مطمح الأنفس) لابن خاقان ، وقد جنح لسان الدين بن الخطيب ، إلى السجع فى بعض جوانب من كتبه ، وكذلك صنع المقرى فى (نفح الطيب) و (أزهار الرياض) ، وكل هذه الأعمال يحس الإنسان فيها بضروب مختلفة من التلفيق والتصنع واللف والدوران حول المعانى والصور التى يجترُّها الأدباء اجتراراً ، وقد سَرَت حينئذ ظاهرة مهمة ، وهى التعبير بالأساليب المحفوظة التى لا تفصح عن فكرة محدودة ، وارجعْ إلى الذخيرة أو إلى مطمح الأنفس أو إلى قلائد العقيان ، فسترى هناك مقدمات يقدّم بها الأدباء لا تعبر عن معان واضحة وإنما تعبر عن صور جامدة متبلورة ، وهذا هو معنى ما نقوله من جمود النثر الأندلسى ، وابحثْ ما شئت فى هذه العصور فلن تجد جديداً ولا ما يشبه الجديد ، إنما تجد أدباً مكرراً معاداً ، قد كُرِّرت أساليبه وأعيدت عباراته مئات المرات بل آلاف المرات ، ولا جديد فيه إلا ما يتصنع له الكاتب من مصطلح علمى ، أو لون بديعى ، أو إشارة إلى مَثَل ، أو استخدام لغريب ، أو نحو ذلك مما كان يعد آية فى هذه العصور على بلاغة الكاتب ومهارته الفنية ، ونحن نقف قليلا عند أهم كاتب ظهر فى الأندلس لهذه العهود ، ونقصد لسان الدين بن الخطيب لتنكشف لنا صورة الكتابة الفنية حينئذ انكشافاً تامًّا .

لسان الدين بن الخطيب

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطى ، ولد عام ٧١٣ للهجرة ، وهو من بيت عُرف قديماً ببنى الوزير وحديثاً ببنى الخطيب[١] ، وهو بيت اشتهر بالعلم والفقه والأدب والطب ، وقد روى صاحب نفح الطيب لأبيه شعراً منه قوله[٢] :

الطبُّ والشعرُ والكتابه سماتنا فى بنى النَّجابَه

وقد نسج لسان الدين على منوال أبيه ، فكان « نفيس العُدْوَتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النَّقْلية »[٣] ، وقد ذكره ابن خلدون وهو معاصر له فقال : « قرأ وتأدب على مشيخة غرناطة ، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُذَيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرَّز فى الطب ، وانتحل الأدب ، وأخذ عن أشياخه ، وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه ، ونبغ فى الشعر والترسّل بحيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر لعصره ، وملأ الدنيا بمدائحه ، وانتشرت فى الآفاق ، فرقّاه السلطان إلى خدمته ، وأثبته فى ديوان الكتابة ببابه مرؤوساً بأبى الحسن بن الجيَّاب شيخ العُدْوتين فى النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية »[٤] ، فلما توفى ابن الجياب ورث رتبته من بعده[٥] ، ثم توفى أبو الحجاج فازدادت منزلته عند ابنه أبى عبد الله إلى أن نشبت ثورة أبعدت السلطان عن عرشه وقُبض فيها على ابن الخطيب وصودرت أملاكه ، ولكنه تخلص من ذلك بشفاعة السلطان أبى سالم المرينى صاحب المغرب ولحق بسيده أبى عبد الله هناك وصحبه فى غربته . ولما رجع أبو عبد الله أخيراً إلى عرشه فى غرناطة ، استدعاه وألقى إليه بمقاليد الملك والسياسة « وانفرد بالحلّ

---

(١) نفح الطيب ٣/٣ .
(٢) نفس المصدر ٣/٧ .
(٣) نفح الطيب ٣/٣٣٤ .
(٤) تاريخ ابن خلدون ٧/٣٣٢ .
(٥) نفس المصدر ٧/٣٣٣ .

والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه، وعُلِّقت عليه الآمال ، وغَشِيَ بابه الخاصة والكافة ، وغصَّت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السِّعاية فيه »[١] ، وأحسَّ لسان الدين بذلك ففرّ إلى أبى فارس المرينى وكان قد ملك تلمسان فأكرمه[٢] إلا أن رجال حاشيته سرعان ما أوغروا صدره عليه إذ اتهموه بالزندقة ، فألقى به فى غياهب السجون ودُسَّ إليه من قتله عام ٧٧٦ ، وبذلك انتهت حياته هذه النهاية الدامية .

وقد كان لسان الدين أبرع كاتب أخرجته الأندلس فى عصورها الأخيرة حتى قيل : إنه كاتب الأرض إلى يوم العرض ، وخصَّص له المقرى مجلدين من نفح الطيب عرض فيهما عرضًا واسعًا لأساتذته وحياته السياسية والأدبية . وإذا كان لسان الدين لم ينجح فى حياته السياسية فقد نجح نجاحاً عظيماً فى حياته الأدبية ، وهى حياة كانت منوعة ، إذ لم يقف بكتابته عند الرسائل الديوانية أو الشخصية ، بل كتب كتباً كبيرة فى التاريخ والتصوف والموسيقى والفقه والطب ، وقد نهج لسان الدين فى هذه الكتب نهج السجع وإن كان لا يلتزمه دائماً على نحو ما نعرف فى كتابه (الإحاطة فى أخبار غرناطة) وهو مطبوع فإنه قلما يسجع فيه . ومن يرجع إلى رسائله يجدها تمتاز بالإطناب المسرف ، وما يُطْوَى فى هذا الأطناب عادة من لفٍّ ودوران يجعلنا نذكر أصحاب التصنع فى المشرق ، وإنه ليتسع بإطنابه حتى يفقد قارئه نشاطه لأن منظر المعانى ينبسط أمام بصره انبساطاً يخرجها من حيِّز التنوع إلى حيِّز الاستمرار والإملال ، وتنبه لذلك بعض السابقين فقال : « هو كاتب مترسل بليغ لولا ما فى إنشائه من الإكثار ، الذى لا يخلو من عِثار ، والإطناب ، الذى يفضى إلى الاجتناب ، والإسهاب ، الذى يَقُدُّ الإهاب »[٣] ، وليست ظاهرة الإطناب هى كل ما اقترضه فى سجعه برسائله من أصحاب التصنع من المشارقة ، بل تقترن بها ظاهرة أخرى معروفة لديهم ، وهى ظاهرة التصنع لمصطلحات العلوم

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/٣٣٥ . ١٩٣/١ .

(٢) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف) (٣) نفح الطيب ٣/٣٣٥ .

وخاصة العلوم اللغوية ، وحقًّا إن ابن الخطيب لا يكثر منها ، ولكنها موجودة — على كل حال — فى نثره ورسائله ، ونحن ننقل إلى القارئ صدر رسالة كتب بها عن سلطانه إلى خليفة الموحدين بالأندلس ، وهى رسالة طويلة تقع فى نحو عشرين صحيفة من القطع الكبير وهو يستهلها على هذا النمط[1] :

« الخلافة التى ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستقلت مبانى فخرها الشائع ، وعزها الذائع ، على ما أسسّه الأخلاف ، ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم ، الاعتراف ، ووسعت الآملين لها الجوانبُ الرحيبة والأكناف ، فامتزاجُنا بعلائها المنيف ، وولائها الشريف ، كما امتزج الماء والسُّلاف ، وثناؤنا على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرَّجت الرياض الأفواف ، لما زارها الغمام الوكّاف ، ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف ، وحرصُنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العميمة ، لا تحصره الحدود ، ولا تدركه الأوصاف ، وإن عَذَرَ فى التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير ، الحقُّ والإنصاف » .

واستمر لسان الدين فى هذه المقدمة طويلا ، ونحن نكتفى بهذه القطعة منها لأننا نستطيع أن نتبين فيها الصفات العامة للسان الدين ، فهو يعتمد على السجع ، وهو يعتمد على التصنع لبعض مصطلحات العلوم ، إذ تصنع لألفاظ القواعد والمبانى والجزم والحدود ، وليس ذلك كل ما يميزه فى هذه القطعة ، فهناك جانب لعله أهم وأدخل فى باب التصنع ، وذلك أنه بنى سجعاته فى هذه القطعة كلها على الفاء ، ولكن تأمل فى القطعة فإنك تراه استخرج من كل سجعة سجعتين داخليتين ، وما من شك فى أن هذا ضرب جديد من التصعيب ، وصل إليه لسان الدين لأنه يريد أن يثبت تفوقه فى عصره ، فإذا هو لا يسجع سجعاً بسيطاً على طريقة الكتّاب الأندلسيين من قبله ، وإنما يسجع هذا السجع المركب إن صح هذا التعبير ، واستمر معه فى الرسالة فستراه يصف حصار

---

(١) انظر الرسالة بأكملها فى صبح الأعشى ٥٣٦/٦ وما بعدها .

سلطانه لقرطبة على هذا النحو :

« ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة ، وخزائن المزاين الوافرة ، وربة الشهرة السافرة والأنباء المسافرة ، قرطبة ، وما أدراك ماهيه ، ذات الأرجاء الحالية الكاسية ، والأطواد الراسخة ، والمبانى المباهية ، والزهراء الزاهية ، والمحاسن غير المتناهية ، حيث هالةُ بدر السماء ، قد استدارت من السور المشيد البناء ونهر المجرّة من نهرها الفياض ، المسلول حسامه من غُمود الغياض ، قد لصق بها جاراً ، وذلك الدولاب ، المعتدل الانقلاب ، قد استقام مداراً ، ورجّع الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الأول وادّكاراً ، حيث الطَّوْدُ كالتاج ، يزدان بلُجَيْن العذب المُجاج ، فيُزْرى بتاج كسرى ودارا ، حيث قِسِيُّ الجسور المديرة ، كأنها عوج المطىّ الغَريرة ، تعبر النهر قطاراً ، حيث آثار العامرىّ المجاهد ، تَعْبَقُ بين تلك المعاهد شَذّى مِعطارا ، حيث كرائم السحائب ، تزور عرائس الرياض الحبائب ، فتحمل لها من الدرّ نثارا ، حيث شَمول الشَّمال تدار على الأدواح ، بالغُدوّ والرَّواح ، فترى الغصون سُكارى وما هى بسكارى ، حيث أيدى الافتتاح ، تفتضُّ من شقائق البِطاح ، أبكارا ، حيث ثغور الأقاح الباسم ، تقبّلها بالسحر زوّار النواسم ، فتخفق قلوب النجوم الغيارى ، حيث المصلّى العتيق قد رحُب مجالا وطال مناراً ، وأزرى ببلاط الوليد احتقاراً ، حيث الظهور المثارة بسلاح الفلاح تجبّ عن مثل أسنمة المهارَى ، والبطون كأنها — لتدميث الغمائم — بطون العذارى » .

وأنت ترى لسان الدين فى هذه القطعة يلتزم لازمة السجع المركب التى لاحظناها فى القطعة السابقة ، وقد ظهرت هنا عليه آثار التكلف بأوسع مما ظهرت فى القطعة السالفة لأنه كان هناك بادئاً للرسالة ، أما هنا فقد طال به النفس فظهرت علامات التعب عليه ، وكلمة التعب لا تكفى ، فإن ما أداه فى هذه القطعة لا تنهض به هذه الكلمة ، وإنما تنهض به كلمة أخرى كالتصعيب أو التعقيد . والحق أن لسان الدين كان يسعى حثيثاً فى أعماله إلى التمسك بأهداب مذهب التصنع الذى شاع فى المشرق ، وقد ذهب يقترح على الكتّاب هذا

السجع المركب ليدل على مبلغ تفننه وجودة ترسله ، وإنه ليضيف إلى ذلك تكلفاً واسعاً لألوان البديع وزخارفه ، وخاصة السجع والجناس ، وكان يُشْغَفُ — كما نرى فى هذه القطعة — بالجناس الناقص ، ولكن لا تظن أن هذا هو منهج لسان الدين الدائم ، فقد كان الكاتب الأندلسى يتنقل بين المفاهيم المختلفة للمشارقة ، ومن أجل ذلك كنت ترى عند لسان الدين رسائل كهذه الرسالة تندمج فى ذوق أصحاب التصنع ، وما تلبث أن ترى له رسائل أخرى تندمج فى ذوق أصحاب التصنيع ، وقد ينفر من الذوقين جميعاً كما نرى فى كتابه (الإحاطة) . وإذاً فابن الخطيب لا يرتبط بمذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هو يتنقل بين هذه المذاهب ، وإن كان أقرب مذهب إلى ذوقه وذوق عصره هو مذهب أصحاب التصنع ، ولكن ذلك لا يمنع أن نجد عنده نماذج يحاكى بها أصحاب الصنعة والتصنيع ، وهذا شىء لا يختص بلسان الدين ولا بنماذجه ، بل هو عام فى الأندلس لعصره وقبل عصره ، فدائماً نجد الكاتب الواحد تتوزعه مذاهب المشرق المختلفة ، وغاية ما فى الأمر أن الأندلسيين كان يغلب عليهم فى العصر الأموى ذوق أصحاب الصنعة ، بينما كان يغلب عليهم فى عصر ملوك الطوائف ذوق أصحاب التصنيع ، أما بعد ذلك فقد غلب عليهم ذوق أصحاب التصنع ، ومع ذلك فقد درسنا ابن شهيد فوجدناه يتوزعه المذهبان الأولان ، بينما كان ابن زيدون فى عصر ساد فيه ذوق التصنيع ، ومع ذلك فقد رأيناه فى بعض رسائله ينحو نحو أصحاب التصنع من بعض الوجوه ، وهذا لسان الدين ذوقُه وذوق عصره تصنعٌ ، واندمج فى التصنع ، ومع ذلك فله رسائل تخلو من هذا التصنع ، بل قد تخلو من التصنع والتصنيع جميعاً ، وهذا نفسه هو ما نريد أن نصل إليه ، وهو أن الكتّاب فى الأندلس كانوا يخلطون فى محاكاة المذاهب المشرقية ونماذجها ، فلم يتقيد أحد منهم بمذهب معين من جهة ولم يدرسوا مذاهب المشرق دراسة علمية منظمة من جهة أخرى ، بحيث تتيح لهم هذه الدراسة أن يبتكروا مذهباً أو يستحدثوا اتجاهاً ، فقد كانوا جميعاً يعيشون فى إطار المذاهب المشرقية معيشة تجعلنا نزعم أن أصول هذه المذاهب كانت أثبت وأروع فى تاريخ النثر العربى من أن تصيبها الأقاليم المختلفة بتبديل أو تغيير .